سياقات قرآنية في أواخر سورة الحشر

د. وسن محمود لطيف

كلية التربية للبنات/ قسم اللغة العربية

المقدمة

الحمد لله الذي جعل القرآن نبراساً يُهتدى بهديه، ونوراً يُستضاء به، والصلاة والسلام على سيدنا محمد ﷺ وعلى آله وصحبه والتابعين أجمعين.

وبعد...

فإنّ الدراسات القرآنية ذات أهمّية كبيرة؛ لآنها تخدم كتاب الله–عز وجل– وهي شغلت قدراً كبيراً من اهتمام الباحثين المتقدّمين منهم والمتأخّرين، وأخذت منهم بحثاً متواصلاً، ومن ذلك تفسير القرآن الكريم، واستنباط أحكامه، وبيانُ إعجازه، وفضائله وغير ذلك من علومه الكثيرة، وكنوزه الدقيقة.

«ولم يكن القرآن معجزاً من جهة فصاحته، وبلاغته فحسب، أو نظمه وأسلوبه فقط، ولا من جهة إخباره بالغيب، بل هو آية بيّنة، معجزة من وجوه متعدّدة من جهة اللفظ، ومن جهة النظم، ومن جهة البلاغة في دلالة اللفظ على المعنى، ومن جهة معانيه التي أخبر بها عن الله تعالى، وأسمائه الحسنى، وصفاته العُلى، وغير ذلك»[١].

إنّ لله – سبحانه وتعالى– أسماء حسنى كثيرة جداً، وصفات منها ما ورد في القرآن الكريم والسنة النبوية، ومنها ما استأثر الله تعالى بها في علم الغيب.

وبعض الصفات تتكرر في القرآن، بحسب اختلاف المقام، وتنوّع مقاصد الإرشاد والتبليغ، ولاسيما في أواخر الآيات.

وإذا نظرنا في أواخر آيات سورة الحشر، نرى أنَّ الآية تختم باسمٍ أو صفةٍ من أسمائهِ تعالى أو بصفتين تتزاوجان بلا حرف عطف بينهما، وتلك الأسماء والصفات لها علاقة بمضامين الآيات.

«والتناسق ألوان ودرجات... ومنها تلك النّكت البلاغية التي تنبّه لها الكثيرون، من التعقيبات المتّفقة مع السياق كأنْ تجيء الفاصلة: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[٢] بعد كلام يُثبت القدرة، والفاصلة ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾[٣] بعد كلام في وادي العلم المستور»[٤].

إنّ ورود هذهِ الصفات الحسنى بهذه الكيفية المنتظمة الخارقة في أواخر الآيات، وبذلك الانتظام اللطيف، وبذلك النظم الدقيق، والانسجام الرقيق، إثباتٌ أن البشر لا يستطيعون أن يصنعوا هذا.

وقد يسر الله لي أن أحظى بشرفِ خدمةِ كتابِ اللهِ، وأن أرتبط بهِ من خلالِ موضوع بحثي هذا، وهو **(سياقات قرآنية في أواخر سورة الحشر)** الذي قسمتهُ البحث على مقدمةِ، ومبحثين وخاتمة.

درست في المبحث الأول: أثر الموجودات في القرآن بأواخر سورة الحشر، والموجودات أعني بها التفكير في آيات الله تعالى الكونية التي دعا إليها القرآن الكريم، وأنّ هذا الكتاب المبارك لهُ تأثير عميق جداً حتى على الجمادات، فضلاً عن التفكير في الخلق وأسراره ودلائله هو مزية الصالحين لقوله تعالى: ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿١٩٠﴾ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴾[٥].

وفي المبحث الثاني: تناولت صفات الله تعالى في أواخر سورة الحشر، وهي درس تربوي كبير للإنسان، لأنها تقول له: إذا كنت تطلب قُرب الله، وتريد العظمة والكمال... فاقتبس من هذهِ الصفات.

وقد قسمتهُ على ثلاثةِ مطالبِ.

ضم الأول: صفات الذات وهي صفة تبحث عن أعم صفات الذات وهي (العام) وأعمّ صفات الفعل وهي (الرحمة) التي هي أساس كل أعمالهُ تعالى، أما المطلب الثاني: فقد شرعت فيه بالحديث عن الصفات الحاكمية، وهي صفة تتحدث عن حاكميته سبحانه وشؤون هذهِ الحاكمية وصفاتهُ، وفي المطلب الثالث: تناولت صفة مسألة الخلق وما يرتبط بها من انتظام في سياق مقام تسلسل الخلقة، والتصوير، والقدرة والحكمة الإلهية.

ويبدو أن سورة الحشر وخواتيمها نزلت في حادثة بني النضير، وهم اليهود الذين نقضوا العهد مع الرسول محمد ﷺ فأجلاهم عن المدينة المنورة، وفي آخر السورة يعظ الله الذين آمنوا بالرجوع إلى أنفسهم كي يحاسبوها، وبالتفكير في العاقبة في الدار الآخرة، وبتعظيم القرآن والخشوع لهُ كما تفعل الجبال لو أُنزل عليها التنزيل من الله عالم الغيب والشهادة، ثم الايقاع الاخير في السورة بذكر صفات الله، وهي صفات ذات فاعلية وأثر في هذا الكون، وعلى أساس تصور حقيقتها يقوم الإيمان الواعي المدرك البصير.

والله من وراء القصد.

المبحث الأول
أثر الموجودات في القرآن بأواخرِ سورة الحشر

إن من العبادات التي هجرها الكثيرون في هذا الزمان هي عبادة التفكير في الموجودات، أي التفكير في آيات الله تعالى الكونية التي دعا إليها القرآن الكريم، والتفكير في الموجودات هو التفكير في كتابٍ مفتوح يورث التفكير فيه اليقين بعظمة خالقه ويوثق الصلة بالله سبحانه وتعالى، والإتصال بالله بسبب استقامة التفكير ونبله، وصقل الروح وسموها، ونلاحظ أن في سياق الآيات المباركة التي هي آخر آيات سورة الحشر تأكيداً على وجوب خشية الله من خلال ضرب الأمثال بموجودات هي الغاية في القوة والصلابة، مثل الجبال، وذلك في قوله تعالى: ﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ۚ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [٦].

تأخذ بنظر الاعتبار مجمل ما ورد من آيات هذهِ السورة، لتوضح حقيقة أخرى حول القرآن الكريم، وهي: أنَّ هذا الكتاب المبارك لهُ تأثير عميق جداً ليس في الاحياء فقط بل في الجمادات، حيث أنَّهُ لو نزل على الجبال لهزها وحركها وجعلها في وضع من الإضطراب المقترن بالخشوع...

إلاَّ أنهُ مع الأسف هذا الإنسان القاسي القلب يسمع آيات الله تُتلى عليه ولا تتحرك روحهُ ولا يخشع قلبهُ، والإنزال هنا يقصد به إنزال القرآن وقد جاء بصيغة (الاستعارة التبعية)[٧] أي أن إنزال القرآن مستعار للخطاب به عبر عنهُ بالإنزال على طريقة التبعية تشبيهاً لشرف الشيء بعلوّ المكان، ولإبلاغه للغير بإنزال الشيء من علوّ.

والمعنى: لو كان المخاطب بالقرآن جبلاً، وكان الجبل يفهم الخطاب لتأثر بخطاب القرآن تأثراً ناشئاً من خشيته لله خشية تؤثرها فيه معاني القرآن.

والمعنى: «لو كان الجبل في موضع هؤلاء الذين نسُوا الله وأعرضوا عن فهم القرآن ولم يتّعظوا بموعظة لا تّعظ الجبل وتصدّع صخرة وتربه من شدة تأثرهُ بخشية الله»[٨] ومن هنا نلاحظ أن الله تعالى اختار الجبل لأنهُ أشد الأشياء صلابة، وقلة تأثر بما ينزل به، وضرب الله التصدع مثلاً لشدة الانفعال والتأثر لأن منتهى تأثر الأجسام الصلبة أن تتشق وتتصدع إذ لا يحصل ذلك لها سهولة، والخشوع هو التطأطؤ والركوع، أي لرأيته ينزل أعلاه إلى الأرض، فالسياق يبين «مجيء الإيقاع الذي يتخلل القلب ويهزه وهو يعرض أثر القرآن في الصخر الجامد لو تنزل عليه»[٩] ثم قال تعالى: ﴿ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ﴾ عُدَّتْ دليلاً وشاهداً على هذا الفهم، أي أن كل

الموجودات في هذا العالم، ومن جملتها الجبال لها نوع من الإدراك والشعور الخاص بها، وإذا نزلت هذهِ الآيات عليها فأنَّها ستتلاشى، ودليل على هذا ما جاء في سياق قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ۚ وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾[10] فالسياق هنا إشارة إلى أن أولئك بنسيانهم لله وإنسائه إياهم أنفسهم، صاروا بهذا النسيان أشد قساوة من الجبال فجملة ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ﴾ هي «تذييل لأن ما قبلها سيق مساق المثل فذُيّل بأن الأمثال التي يضربها الله في كلامهِ مثلَ المثل أراد منها أن يتفكروا فإن لم يتفكروا بها فقد سُجّل عليهم عنادُهم ومكابرتهم، فالإشارة بتلك إلى مجموعة ما مرّ على أسماعهم من الأمثال الكثيرة، وتقديرُ الكلام: ضربنا هذا مثلاً، وتلك الأمثال نضربها للناس»[11]. نستنتج من هذا أن القرآن الكريم لهُ تأثير في القلوب والأفكار واقعية لا تنكر، وعلى طول التأريخ الإسلامي، وثبت أن أقسى القلوب عند سماعها لآيات محدودة من القرآن الكريم تُلين وتخضع وتؤمن بالذي جاء بالقرآن دفعة واحدة، اللهم عدا الأشخاص المعاندين المكابرين فقد استثنوا من ذلك حيث طبع الله على قلوبهم فهم لا يفقهون، وليس هنالك من أمل في هداية نفوسهم المدبِرة عن الله سبحانه وتعالى.

المبحث الثاني
من صفات الله في أواخر سورة الحشر

إن الآيات الأخيرة من سورةِ الحشر، قد اشتملت على قسم مهمّ من الأسماء، والصفات الإلهية– فهي درس تربوي كبير للإنسان، لأنها تقول لهُ: إذا كنت تطلب قُرب الله، وتريد العظمة والكمال... فاقتبس من هذهِ الصفات، وقد قسمتها على ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: (صفات الذات).

وفي هذهِ الصفة نبحث عن أعم صفات الذات وهي (العلم) وأعمّ صفات الفعل وهي (الرحمة) التي هي أساس كلُ أعماله تعالى، ونجد سياقها في قوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۖ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴾[12].

فنلاحظ هنا تأكيداً على التوحيد والتوجه لهذا الفهم إلى الذات الإلهية ويتبين ذلك في سياق التكرار[١٣]، في قوله تعالى ﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾.

فقد «كرر لإبراز الاعتناء بأمرِ التوحيد»[١٤] فنلاحظ أن التكرار الوارد في بداية السورة الكريمة دلائل على قدرة الله لأنه «لما تكرر في هذه السورة ذكر اسم الله، وضمائره، وصفاتهُ أربعين مرة منها أربع وعشرون بذكر اسم الجلالة وست عشرة مرة بذكر ضميره الظاهر، أو صفاته العلية، وكان ما تضمنته السورة دلائل على عظيم قدرة الله وبديع تصرفه وحكمته»[١٥]، ونلاحظ في سياق خواتيم الحشر تكرار الضمائر، فقد كرر الضمير (هو) في قوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ فهو كالقول في الجملة الأولى ﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾.

وهذا تكرار للاستئناف لأن المقام مقام تعظيم وهو من مقامات التكرير، وفيه اهتمام بصفة الوحدانية[١٦].

لكن سياق الضمير الواقع في أول الجملة في قوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ عائد إلى اسم الجلالة في قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ﴾[١٧] فهو (مبتدأ واسم الجلالة خبر عنهُ) والذي (صفة لاسم الجلالة) وكان مقتضى الظاهر الاقتصار على الضمير دون ذكر اسم الجلالة، لأن المقصود الإخبار عن الضمير بـ ﴿ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾، وبما بعد ذلك من الصفات العلية، فالجمع بين الضمير وما يساوي معادَة اعتبار بأن اسم الجلالة يجمع صفات الكمال لأن أصله إلا لأه ومدلول إلا لأه يقتضي جميع صفات الكمال، ويجوز أن يجعل الضمير، ضمير الشأن ويكون الكلام استئنافاً قُصد منهُ تعليم المسلمين هذهِ الصفات ليتبَصَّروا منها وللردَّ على المشركين إشراكهم بصاحب هذهِ الصفات معهُ أصنافاً ليس لواحد منها شيء من مثلِ هذهِ الصفات، ولذلك خُتمت طائفة من هذهِ الصفات بجملة قوله تعالى: ﴿ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾[١٨] ولما كان شأن سياق هذه الصفات عظيماً ناسب أن تفتتح الجملة بضمير الشأن في ﴿ هُوَ ٱللَّهُ ﴾، فيكون اسم الجلالة (الله) مبتدأ، و﴿ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ خبر، والجملة خبر عن ضمير الشأن، لذلك ابتدئ بهذهِ الصفات العلية، وهي صفة الوحدانية ومدلولها ﴿ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ لأنها الأصل فيما يتبعها من صفات الله تعالى[١٩].

ولهذا يكون ضمير ﴿ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ «ضمير فصل يفيد تعالى لعدم الاعتداد برحمة غيره لقصورها قال تعالى ﴿ وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ ﴾[٢٠]»[٢١]، أما ضمير (يشركون) فـ «عائد

إلى معلوم من المقام وهم المشركون الذي لم يزل القرآن يقرعهم بالمواعظ»[٢٢] فيتقرر في سياق ضمير ﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ «وحدانية الاعتقاد، ووحدانية العبادة، ووحدانية الاتجاه، ووحدانية الفاعلية من مبدأ الخلق إلى منتهاه، ويقوم على الوحدانية منهج كامل في التفكير والشعور، والسلوك، وارتباط الناس بالكون وسائر الأحياء، وارتباط الناس بعضهم ببعض على أساس وحدانية الإله»[٢٣] أما تكرار سياق ﴿ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ فـ «يستقر في الضمير شعور الطمأنينة لرحمة الله والاسترواح»[٢٤].

أما سياق (عالمُ الغيب والشهادة) «فيستقر في الضمير الشعور بعلم الله للظاهر والمستور، ومن ثم تستيقظ مراقبة هذا الضمير لله في السر والعلانية، ويعمل الانسان كل ما يعمل بشعور المراقب من الله المراقب لله، والذي لا يعيش وحده، ولو كان في خلوة أو مناجاة! ويتكيف سلوكه بهذا الشعور الذي لا يغفل بعده قلب ولا ينام»[٢٥].

فنلاحظ من سياق مما تقدم ان الطباق[٢٦] حقق الغاية المرجوة بين (الغيب والشهادة) في قوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ﴾[٢٧] وبين (الجنة والنار) في سياق سورة الحشر بقوله تعالى: ﴿ لَا يَسْتَوِىٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۚ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ﴾[٢٨] فهنا الشعور بعلم الله للظاهر والمستور في سياق الغيب والشهادة فالحضور مقترن بالمشاهدة، سواء أكان بالعين الظاهرة أم بعين البصيرة[٢٩].

المطلب الثاني: صفات الحاكمية.

ونتناول في هذه الصفة حاكميته سبحانه وشؤون هذه الحاكمية وصفاته، فضلاً عن التأكيد على مسألة التوحيد فإنّها تذكر ثمانية صفات أخرى لله سبحانه وتعالى، في قوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾[٣٠] ونلاحظ أن معاني هذه الصفات المذكورة هي جميعها من خصوصيات هذهِ الحاكمية الإلهية المطلقة ويتبين ذلك من خلال صفة (القدوس) فإنها تكررت في قوله تعالى: ﴿ يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْمَلِكِ ٱلْقُدُّوسِ ﴾[٣١]، وقال تعالى: ﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ﴾[٣٢].

فلم يرد اسمهُ سبحانه (القدوس) إلاّ مرتين في كتابه مقروناً باسم الملك، ولعل السرَّ في اقتران الملك بالقدوس: أن من صفات هذا الملك أنهُ قدوس، إشارة إلى أنهُ سبحانهُ مع كونه ملكاً،

مدبراً، متصرفاً في كل شيء، فهو قدوس منزه عما يعتري الملوك من النقائض التي اشهرها الاستبداد، والظلم، والاسترسال مع الهوى والمحاباة[٣٣].

ونلاحظ الالتفاتة الجميلة في سياق (القدوسُ السلامُ): «السلام بمعنى السلامة، ومنه قوله تعالى: ﴿دَارِ ٱلسَّلَٰمِ﴾[٣٤] وقوله تعالى: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ﴾[٣٥] وصفا به المبالغة في وصف كونهُ سليماً من النقائض، أو في إعطائه السلامة»[٣٦]. فمن سياق ما تقدم يتبين أنّهُ لا يبقى بين القدوس والسلام فرق والتكرار خلاف الأصل، كونهُ قدوساً.

إشارة إلى براءته عن جميع العيوب في الماضي والحاضر، وكونهُ سليماً إشارة إلى أنهُ لا يطرأ عليه شيء من العيوب في الزمان المستقبل، فإن الذي يطرأ عليه شيء من العيوب، فإنّهُ تزول سلامتهُ ولا يبقى سليماً، فالسلام لا يظلم أحد، وجميع الخلائق في سلامة من جهته[٣٧]، فأساس السياق هي دعوة الله تعالى للسلامة كما ذكرت في سياق قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَدۡعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ﴾[٣٨]، ونستنتج من هذا أن السلام «اسم كذلك يشيع السلام والأمن والطمأنينة في جنبات الوجود، وفي قلب المؤمن تجاه ربهُ، فهو آمن في جواره، سالم في كنفه، وحيال هذا الوجود وأهله من الأحياء والأشياء، ويؤوب القلب من هذا الاسم بالسلام، والراحة، والاطمئنان»[٣٩].

وفي هذه الآية نلاحظ اقتران (العزيز بالجبار)، «اقترانه بالجبار في موضوع تعريف الذات الإلهية بالأسماء الحسنى والصفات العُلا اللائقة بحق ألوهيته، ومع ذلك يُشرك بها المشركون»[٤٠].

يتبين من سياق ما تقدم «هي صفات توحي بالقهر والغلبة والجبروت والاستعلاء، فلا عزيز إلا هو، ولا جبار إلا هو، ولا متكبر إلا هو، وما يشاركه أحد في صفاتهِ هذه، وما يتصف بها سواهُ، فهو المتفرد بها بلا شريك، ومن ثمّ يختمها بـ﴿سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾» [٤١] حيث يؤكد على مسألته التوحيد.

المطلب الثالث: صفات الخلق.

ونتناول في هذه الصفة مسألة الخلق وما يرتبط من انتظام في سياق مقام تسلسل الخلقة، والتصوير، وكذلك البحث في موضوع القدرة والحكمة الإلهية، في قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلۡخَٰلِقُ ٱلۡبَارِئُ ٱلۡمُصَوِّرُ لَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾[٤٢] فيعود السياق هنا ويكرر الضمير (هو) في قوله ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلۡخَٰلِقُ﴾ لأن السياق «مفتتح به، وفي تكرار الجملة كالقول

في التي سبقتها، فإن كان ضمير الغيبة ضمير شأن، فالجملة بعده خبر عنه»[٤٣] ثم يبين السياق توالي الصفات المترابطة اللطيفة الفروق في قوله (الخالقُ، البارئُ، المصورُ) «إنما ذكرت هذهِ الصفات متتابعة لأن من مجموعها يحصل تصور الإبداع الإلهي للإنسان فابتدئ بالخلق الذي هو الإيجاد الأصلي، ثم بالبدء الذي هو تكوين الإنسان، ثم بالتصوّر الذي هو إعطاء الصورة الحسنة»[٤٤] كما أشار إليه قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ﴾[٤٥] وقوله: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ ﴾[٤٦] ونستنتج من هذا أن «وجه ذكرها عقب الصفات المتقدمة، أي هذهِ الصفات الثلاث أُريد منها الإشارة إلى تصرفهُ في البشر بالإيجاد على كيفيته ليثير داعية شكرهم على ذلك»[٤٧]. ومن هذا أن صفات الله لا تنحصر فقط بالتي ذكرت في هذهِ الآية فإنَّه سبحانهُ وتعالى يشير إلى صفة أساسية لذاته المقدسة اللامتناهية، في قوله تعالى: ﴿ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴾.

وسياق «الحسنى التي توحي بالحسن للقلوب وتفيضه عليها، وهي الاسماء التي يتدبرها المؤمن ليصوغ نفسه وفق إيحائها واتجاهها، إذ يعلم أن الله يحب له أن يتصف بها، وأن يتدرج في مراقبة وهو يتطلع إليها»[٤٨] وخاتمة هذه التسبيحة المديدة بهذه الأسماء الحسنى، يأتي سياق التسبيح لله، ولهذا السبب فإنه سبحانه منزه ومبرأ من كل عيب ونقص في قوله تعالى: ﴿ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾.

نلاحظ في هذه الآية أن رد العجز على الصدر[٤٩]، حقق الغاية المرجوة فيه لان (صدر السورة مماثل لآخرها)[٥٠].

وهو سياق «يتوقعهُ القلب بعد ذكر تلك الأسماء ويشارك فيه مع الأشياء، والأحياء... كما يتلاقي فيه المطلع والختام، في تناسق والتئام»[٥١] ثم يشير سبحانهُ وتعالى إلى وصفين آخرين من صفاتهِ المتقدمة في أخر السورة بقوله تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾، للتأكيد الأكثر على موضوع نظام الخلقة، وقد ورد ذكرها في بداية السورة، ففي سياق بداية السورة دليل كمال قدرته سبحانهُ على كل شيء، غلبته على كل قوة، أما ورود ذكرها في أخر السورة إشارة إلى علمهِ، واطلاعهِ، ومعرفتهُ بالخلق وتنظيم الوجود وتدبير الحياة.

الخاتمة

بحمدِ اللهِ وبركاته ختمتُ بحثي هذا، الذي عشتُ في رحابهِ رحلةً ممتعة مع الله، وكلامهِ العظيم، و توصلت به إلى النتائج الآتية:

١. أن الموجودات لها أثر كبير في التفكير في آيات الله الكونية، وقد دعا إليها القرآن الكريم، وتعظيم القرآن والخشوع لهُ كما تفعل الجبال لو أُنزل عليها التنزيل من الله عالم الغيب والشهادة الذي لهُ الأسماء الحسنى وتناولت الموجودات في المبحث الأول.
٢. اختص المبحث الثاني: بصفات الله في أواخر سورة الحشر الذي يدعو الذين آمنو ويخاطبهم بهذا القرآن، وهي صفات ذات فاعلية وأثر في هذا الكون وعلى أساس تصور حقيقتها يقوم الإيمان الواعي المدرك البصير، وتوصلت فيه إلى صفات الذات، والصفات الحاكمية، والصفات الخلق.

وقد وضحت في صفات الذات التأكيد على مسألة التوحيد، أما الصفات الحاكمية فإنها تذكر ثماني صفات أخرى لله سبحانهُ وتعالى فضلاً إلى مسألة التوحيد، أما صفات الخلق فقد شرعت فيه بالحديث عن مسألة الخلق وما يرتبط به من إنتظام في سياق تسلسل الخلقة، والتصوير، والقدرة الحكمة الإلهية.

ونخلص في الأخير إلى القول بأن السورة تبدأ وتختم بتسبيح الله تعالى الذي له ما في السموات والأرض، وهو العزيز الحكيم، فيتناسق البدء والختام، مع موضوع السورة، ومع دعوة المؤمنين للتقوى والخشوع، والتفكير في كلام الله الحكيم.

والله من وراء القصد.

هوامش البحث

(١) التفسير الكبير: لابن تيمية: ١٥٤/٢.

(٢) سورة الحديد آية ٢.

(٣) سورة آل عمران آية ١١٩.

(٤) التصوير الفني في القرآن: سيد قطب، ص٧٤-٧٥.

(٥) سورة آل عمران آية ١٩٠-١٩١.

(٦) سورة الحشر آية ٢١.

(٧) هي ما كان اللفظ فيها فعلاً أو اسماً مشتقاً أو حرفاً، وسميت بالتبعية، لأن التجوزّ فيها بطريق التبع، وسرّ ذلك، كما بيّنهُ عبد القاهر الجرجاني بقوله: «إن الفعل لا يُتصوّر فيه أن يتناول ذات الشيء، كما يتصور في الاسم، ولكن شأن الفعل أن يُثبت المعنى الذي اشتُق منهُ للشيء في الزمان الذي تدل صيغته عليه، فإذا قلت: (ضرب زيدٌ) أتيتَّ الضرب لزيد في زمانٍ ماضٍ، وإذا كان كذلك، فإذا أستعير الفعل لما ليس له في الأصل، فإنهُ يُثبت باستعارتهِ لهُ وصفاً هو شبيه بالمعنى الذي ذلك الفعل مشتق منهُ» اسرار البلاغة: ص٥١ و٥٣ إذاً المقصود هو المعنى المثبت للشيء – وهو المصدر– فلا يمكن وصف الفعل بأنهُ مستعار؛ لدخول الزمان – غير الثابت– في مفهومهِ، كما يرى الخطيب القزويني: «التشبيه في الأفعال والصفات المشتقة منها لمعاني مصادرها، وفي الحروف لمتعلقات معانيها» الإيضاح في علوم البلاغة: ٥/٩٠–٩١.

(٨) التحرير والتنوير: لابن عاشور، ١١٦/٢٨.

(٩) في ظلال القرآن: سيد قطب، ٣٥٣٢/٦.

(١٠) سورة البقرة: الآية ٧٤.

(١١) التحرير والتنوير: لابن عاشور ١١٧/٢٨.

(١٢) سورة الحشر: آية ٢٢.

(١٣) التكرار: هنا متمثل في تكرار – الألفاظ والعبارات– والمقصود بهِ إعادة الكلمة نفسها، أو العبارة ذاتها في السياق نفسهُ، أو من سياق آخر من السورةِ وبمعنى كما حددهُ ابن الأثير هو: «دلالة اللفظ على المعنى مُرّدداً، كقولك لمن تستدعيه: أسرع أسرع، فإن المعنى مُرّدد، واللفظ واحد». المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر: ٢/١١٠.

(١٤) إرشاد العقل السليم: لأبي السعود ٢٣٣/٨، وينظر: روح المعاني: للآلوسي ٢٥٦/١٤.

(١٥) التحرير والتنوير: لابن عاشور ١١٧/٢٨.

(١٦) ينظر: المصدر نفسه ١٢٠/٢٨.

(١٧) سورة الحشر: آية ١٨.

(١٨) سورة الحشر: آية ٢٣.

(١٩) ينظر: روح البيان: المولى أبو الفداء ٤٥٤/٩، وينظر: التحرير والتنوير: لابن عاشور ١١٨/٢٨.

(٢٠) سورة الأعراف: آية ١٥٦.

(٢١) التحرير والتنوير ١١٩/٢٨.

(٢٢) التحرير والتنوير: لابن عاشور ١٢٣/٢٨.

(٢٣) في ظلال القرآن: سيد قطب ٣٥٣٢/٦.

(٢٤) المصدر نفسه ٣٥٣٣/٦.

(٢٥) في ظلال القرآن: سيد قطب ٣٥٣٢/٦.

(٢٦) يحدد د. أحمد مطلوب و د. حسن البصير الطباق بقولهما (هو الجمع بين الشيء وضدّه في الكلام) البلاغة والتطبيق: ص ٤٣٨، وينظر: جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع: السيد أحمد الهاشمي، ص٢٩١.

(٢٧) سورة الحشر: آية ٢٢.

(٢٨) سورة الحشر: آية ٢٠.

(٢٩) ينظر صفوة التفاسير: محمد علي الصابوني ٣٣٨/٣.

(٣٠) سورة الحشر: آية ٢٣.

(٣١) سورة الجمعة: آية ١.

(٣٢) سورة الحشر: آية ٢٣.

(٣٣) ينظر: التحرير والتنوير: لابن عاشور ١٢٠/٢٨، ٢٠٧.

(٣٤) سورة يونس: آية ٢٥.

(٣٥) سورة الأنعام: آية ٥٤.

(٣٦) الكشاف: للزمخشري ٥٠٩/٤، وينظر: تفسير البيضاوي: للبيضاوي ٢٠٢/٥.

(٣٧) ينظر: مفاتيح الغيب: للرازي ٢٥٥/٢٩.

(٣٨) سورة يونس: آية ٢٥.

(٣٩) في ظلال القرآن: سيد قطب ٣٥٣٣/٦.

(٤٠) اسرار التناسب والنظم في الأسماء الحسنى والصفات العُلا في فواصل سورة الأنفال: رسالة ماجستير، عواطف حمزة خياط، ص١٢٥، المملكة العربية السعودية، جامعة ام القرى.

(٤١) في ظلال القرآن ٣٥٣٣/٦.

(٤٢) سورة الحشر: آية ٢٤.

(٤٣) التحرير والتنوير: لابن عاشور ١٢٣/٢٨.

(٤٤) التحرير والتنوير: لابن عاشور ١٢٥/٢٨.

(٤٥) سورة الانفطار: آية ٧.

(٤٦) سورة آل عمران: آية ٦.

(٤٧) التحرير والتنوير ١٢٥/٢٨.

(٤٨) في ظلال القرآن: سيد قطب ٣٥٣٤/٦.

(٤٩) حدد، د.ماهر مهدي هلال رد العجز على الصدر يعني به (ضربٌ من ضروب التكرار المراد به تقوية النغم) جرس الألفاظ ودلالتها في البحث البلاغي والنقدي عند العرب ص٢٥٥.

(٥٠) التحرير والتنوير: لابن عاشور ١٢٧/٢٨.

(٥١) في ظلال القرآن ٣٥٣٤/٦.

المصادر والمراجع

- **القرآن الكريم.**

١. إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم: أبو السعود العمادي محمد بن محمد بن مصطفى (ت٩٧٢هـ)، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

٢. اسرار البلاغة: ابو بكر عبد القاهر بن عبدالرحمن الجرجاني، تحقيق: محمود شاكر، ط١، مطبعة المدني، مصر، ١٤١٢هـ/١٩٩١م.

٣. أنوار التنزيل وأسرار التأويل: ناصر الدين أبو سعيد عبدالله بن عمر بن محمد الشيرازي البيضاوي (ت٦٨٥هـ)، تحقيق: محمد عبدالرحمن المرعشلي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط١، ١٤١٨هـ.

٤. الايضاح في علوم البلاغة: جلال الدين أبو المعالي محمد بن عبدالرحمن الخطيب القزويني، تحقيق: محمد عبد المنعم خفاجي، ط٣، دار الجبل، بيروت، ١٤١٤هـ/١٩٩٣م.

٥. البلاغة والتطبيق: د. احمد مطلوب و د. حسن البصير، حقوق الطبع محفوظة لدى وزارة التعليم العالي والبحث العلمي، ط٢، ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م.

٦. التحرير والتنوير: محمد الطاهر بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي (ت١٣٩٣هـ)، دار النشر: دار سحنون للنشر والتوزيع، تونس، ١٩٩٧م.

٧. التصوير الفني في القرآن الكريم: سيد قطب (ت١٣٨٧هـ)، دار المعرفة بمصر، ط٨.

٨. التفسير الكبير: لابن تيمية (ت٧٢٨هـ)، تحقيق، د. عبدالرحمن العمير، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م.

٩. جرس الألفاظ ودلالتها في البحث البلاغي والنقدي عند العرب: د. ماهر مهدي هلال، دار الرشيد للنشر، سلسلة دراسات (١٩٠٥) بغداد، ١٩٨٠م.
١٠. جواهر البلاغة في المعاني والبيان البديع: السيد أحمد الهاشمي، دار الآفاق العربية، القاهرة، ط١، ١٤٢٢هـ/٢٠٠٢م.
١١. روح البيان: اسماعيل حقي بن مصطفى الإستانبولي الحنفي الخلوتي، المولى أبو الفداء (ت ١١٢٧هـ)، الناشر دار الفكر، بيروت.
١٢. روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني: شهاب الدين محمود بن عبدالله الحسيني الآلوسي (ت١٢٧٠هـ)، تحقيق: علي عبد الباري عطية، دار الكتب العلمية، بيروت ط١، ١٤١٥هـ.
١٣. صفوة التفاسير: محمد بن علي الصابوني، دار الصابوني للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ط١، ١٤١٧هـ/١٩٩٧م.
١٤. في ظلال القرآن: سيد قطب ابراهيم حسين الشاربي (ت١٣٨٥هـ)، دار الشروق، بيروت، القاهرة، ط١٧،١٤١٢هـ.
١٥. الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل:- أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، الزمخشري جار الله (ت ٥٣٨هـ)، تحقيق: عبدالرزاق المهدي، دار النشر: دار احياء التراث العربي، بيروت.
١٦. المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر: لابن الأثير، ضياء الدين نصر الله بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبدالكريم، تحقيق الشيخ كامل محمد محمد عويضة، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٤١٩هـ/١٩٩٨م.
١٧. مفاتيح الغيب: لفخر الدين محمد بن عمر التميمي الرازي الشافعي (ت٦٠٦هـ)، دار الكتب العلمية بيروت، ط١، ١٤٢١هـ/٢٠٠٠م.

الأطاريح والرسائل:

- أسرار التناسب والنظم في الأسماء الحسنى والصفات العُلا في فواصل سورة الأنفال، رسالة ماجستير؛ عواطف حمزة خياط، المملكة العربية السعودية، جامعة أم القرى.